أعلام الجزائر وجهودهم في الدراسات الصوتية: الإمام المغيلي أنموذجا

Notable figures in Algeria and their efforts in vocal studies: Imam al-Maghili as a model

د/ فاطمة برماتي
جامعة أحمد دراية أدرار/ الجزائر
f.bermati@gmail.com
أ.د/ إدريس بن خويا
جامعة أحمد دراية أدرار/ الجزائر
benkhoia.idriss@gmail.com

Abstract
In this research paper, we try to focus on the contributions of Algerian scientists in audio studies, in particular praising the efforts of Imam Muhammad bin Abdul Karim Al-Mughili in this field through his scientific effects of multiple knowledge and science, so we will try to highlight the concept of sound, and the importance of hearing in communication, as well as talking about the importance of readings The Qur'anic phenomenon and the phenomenon of slurring and other phonetic issues that Imam Al-Mughili touched upon in many of his scientific works; printed and manuscript.
Keywords: sound - diphthongs - readings - language – hearing

ملخص:
نحاول في هذه الورقة البحثية التركيز على إسهامات علماء الجزائر في الدراسات الصوتية، وبالتحديد الإشادة بجهود الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في هذا المجال من خلال آثاره العلمية المتعددة المعارف والعلوم، لذا سنحاول إبراز مفهوم الصوت، وأهمية السمع في التواصل، وكذا الحديث عن أهمية القراءات القرآنية وظاهرة الإدغام وغيرها من القضايا الصوتية التي تطرق إليها الإمام المغيلي في العديد من مؤلفاته العلمية؛ المطبوعة والمخطوطة.
الكلمات المفتاحية: الصوت – الإدغام – القراءات – اللغة – السمع.

تمهيد:

إنَّ الحديث عن اللغة في التراث العربي، يقتضي منّا الإشادة أو الوقوف عند مضامين البحث اللغوي ومكامنه لدى العلماء القدامى، ومما لا يختلف فيه اثنان أن القرآن الكريم –الذي نزل بلغة قريش

على خير الأنام سيدنا محمد ﷺ -يعد الباعث الأول والأساس في اهتمام الحضارة العربية بالبحث في اللغة ومكوناتها وجمالياتها الصوتية والصرفية والنحوية، الدلالية والمعجمية والبلاغيةّ ذلك أن النص القرآني المعجز بلفظه ونظمه جاء ليتحدا العرب والعجم بإعجازه اللغوي، وبسحر بيانه، وبفصاحة بلاغته على أوسع نطاق لغوي.

ولما كانت الحاجة مُلِحّة وضرورية في تتبُّع ألفاظه وفهم معانيه ومقاصده، تسابقت وتسارعت إلى دراسته عدة علوم بُغية استنطاق بنيته الأصلية القصدية وَفق مراعاة مبدأ النزول بطبيعة الحال، ومن تلك العلوم: علم الصوت، وعلم الصرف، وعلم النحو ، وعلم البلاغة، وعلم التفسير، وعلم الأصول...كُلٌّ يدرسه وَفق ما يمليه عليه طابع الاختصاص، ولكن المتتبع سيقف – بلا شك- عند حقيقة واحدة مفادها أن تلك العلوم تشترك في الاهتمام بدراسة ماله صلة بثنائية اللفظ والمعنى، وذلك شأن الدارسين القدامى الذين أولوا عناية كبرى لهذه الثنائية.

وفي ذلك يقول عبده الراجحي: « والسبب الحقيقي فيما نعتقد لنشأة علوم اللغة عند العرب إنما هو السعي لفهم النص القرآني باعتباره مناط الأحكام التي تنتظم الحياة، وفرق كبير بين علم يسعى لفهم النص وعلم يسعى لحفظه من اللحن، ولو كانت الغاية منه حفظ النص من اللحن لما أنتج العرب هذه الثروة الضخمة في مجال الدرس اللغوي، ومحاولة الفهم هذه هي التي حددت مسار المنهج لأنها ربطت درس اللغة بكل المحاولات الأخرى التي تسعى لفهم النص» [1].

القرآن إذن، صاحب الفضل في نشأة الدراسات اللغوية المبكرة في التراث العربي، ولخوف العرب من دخول اللحن عليه مثل ما أصاب الألسنة من لحن وتحريف بعد أن تعددت ألسنة الداخلين في الإسلام، واختلطت وتفشت ظاهرة اللحن، تسارعت إليه بعض الجهود الفردية لوضع بصمتها في حماية هذا النص المقدّس الأزلي حتى لا يلمسه اللحن لا من قريب ولا من بعيد، وما في محاولة أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) المبكرة في ضبط المصحف بالشكل[2] ما هي إلاّ دليل قاطع على عناية العرب بهذا النص المعجز وحمايته قدر الإمكان والتمكن من قراءة حروفه وألفاظه القراءة الصحيحة على الجهة المقصودة التي أُنزِل عليها ولأجلها، ومن ذلك يقول أبو عمرو الدّاني (ت444هـ): « اعْلَم أيّدك الله بتوفيقه أَنَّ الَّذِي دَعَا السّلف -رَضِي الله عَنْهُم- إِلَى نقط الْمَصَاحِف بعد أَن كَانَت خَالِيَة من ذَلِك وعارية مِنْهُ وَقت رسمها وَحين توجيهها إِلَى الأَمْصَار... ما شاهدوه من أهل عصرهم، مَعَ قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أَهلهَا، من فَسَاد ألسنتهم وَاخْتِلَاف ألفاظهم، وَتغَير طباعهم وَدخُول اللّحن على كثير من خَواص النَّاس وعوامهم، وَمَا خافوه مَعَ مُرُور الأَيَّام وتطاول الأَزْمَان من تزيد ذَلِك وتضاعفه فِيمَن يَأْتِي بعد مِمَّن هُوَ لَا شكّ فِي العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه مِمَّن عرض لَهُ

الْفساد، وَدخل عَلَيْهِ اللّحن لكَي يرجع إِلَى نقطها، ويصار إِلَى شكلها عِنْد دُخُول الشكوك وَعدم الْمعرفَة، ويتحقق بذلك إِعْرَاب الْكَلم وتدرك بِهِ كَيْفيَّة الألفاظ» [3].

ولكن على الرغم من اهتمام العرب بالبحث اللغوي منذ نزول القرآن الكريم، إلاّ أنهم بالمقارنة مع الدّراسات اللغوية عند الشعوب القديمة متأخرون زمنياً، خصوصا وأنه عُرِف لبعضها دراسات لغوية راسخة قبل مجيء الإسلام بقرون، باعتبار أن اهتمام العرب كان منصباً في أول أمره نحو العلوم الشرعية والإسلامية، وعند فراغهم من تلك العلوم اتجهوا للعناية بعلوم أخرى، التي منها علوم اللغة كما يرى مختار عمر[4]. وهو ما أكده جلال الدين السيوطي بقوله: « قال الذهبي: في سنة ثلاث وأربعين شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث، والفقه، والتفسير،... وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة، والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة» [5].

ولكن ذلك الكلام الذي توقف عنده مختار عمر لا يدّعي أن الحضارة العربية لم ترتق إلى المستوى الذي بلغته الحضارة القديمة في رِحاب الدراسات اللغوية؛ كالحضارة الهندية التي اهتمت بدراسة كتابها المقدس "الفيدا"، وكذا لغتها الأم "السنسكريتية"، بل إنّ الحضارة العربية أسهمت إسهاماً كبيرا في مجال البحث اللغوي وعلى مختلف مستوياته، وبالتالي فهي ليست أقل شأن من تلك الحضارات، وهو ما صرّح به أحمد حساني قائلاً: « لم تكن الحضارة العربية الإسلامية أقل شأنا من سواها في رحاب النشاط الفكري بعامة والنشاط اللغوي بخاصة، فالدارسون العرب الأقدمون لهم جهود لا تنكر في حقل الدراسة اللغوية بكل مستوياتها؛ الصوتية والتركيبية والدلالية» [6]. ثم يضيف قائلاً: « فإذا ما التفتنا إلى التراث الفكري العربي– الذي نشأ وترعرع في ظل التحول الحضاري العميق الذي أحدثه القرآن الكريم في المجتمع العربي والإنساني بشكل عام– نجده يزخر برصيد معرفي لا يحط من شأنه في الفكر اللساني المعاصر، وهو الرصيد الذي يملك الشرعية العلمية والحضارية لكي يُعتمد في اكتمال المرتكزات المعرفية للنظرية اللسانية العالمية » [7]. وهي حقيقة لابد لنا من أن نقف عندها بتمعّنٍ؛ حيثُ إنَّ تراثنا الفكري الديني على وجه الخصوص يزخر بطروحات لسانية تتداخل مع طروحات الدرس الحديث اللسانية، يبقى –فقط– الاجتهاد من طرف المختصين في البحث والتنقيب والقراءة العميقة لمؤلفات أعلام حضارتنا العربية القديمة؛ الفقهية، الأصولية، التفسيرية والفلسفية وغيرها. وهذا ما يجعلنا أن نُدعِّم الرأي بقول عبد السّلام المسدّي: « العرب بحكم مميّزات حضارتهم، وبحكم اندراج نصّهم الدّينيّ في صلب هذه المميزات قد دُعوا إلى تفكّرِ اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها، فأفضى بهم النظر لا إلى درس شُمولي كوني للغة فحسب، بل قادهم النظر –أيضا– إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة منذ مطلع

القرن العشرين » [8]؛ وذلك كمثل الجانب الصوتي في وصف العلماء للجهاز الصوتي بدقة تضاهي ما توصل إليه الغربيون في علم التشريح، وفي توظيفهم للمخابر الصوتية.

أولاً: مفهوم اللغة وأهميتها:

ولما كان الحديث عن الدراسات اللغوية فالأحرى الحديث عن مفهوم اللغة أولاً، وقبل الولوج في مستويات البحث فيها، حيث يقول ابن منظور (ت711هـ): « لغا: اللَّغْو واللَّغا: السَّقَط وَمَا لَا يُعتدّ بِهِ مِنْ كَلَامٍ وَغَيْرِهِ وَلَا يُحصَل مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ ولا نَفْع. التَّهْذِيبُ: اللَّغْو واللَّغا واللَّغْوَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ غَيْرَ مَعْقُودٍ عَلَيْهِ... قَالَ الأَزهري: واللُّغَة مِنَ الأَسماء النَّاقِصَةِ، وأَصلها لُغْوة مِنْ لَغا إِذا تَكَلَّمَ...قَالَ الْكِسَائِيُّ: لَغا فِي الْقَوْلِ يَلْغَى، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ يَلْغُو، ولَغِيَ يَلغَى، لُغةٌ، ولَغا يَلْغُو لَغْواً: تَكَلَّمَ....واللُّغَة: اللِّسْنُ، وحَدُّها أَنها أَصوات يُعبِّر بها كل قَوْمٍ عَنْ أَغراضِهم، وَهِيَ فُعْلةٌ مِنْ لَغَوْت أَي تكلَّمت...وَقِيلَ: أَصلها لُغَيٌ أَو لُغَوٌ، وَالْهَاءُ عِوَضٌ، وَجَمْعُهَا لُغًى مِثْلَ بُرة وبُرًى، وَفِي الْمُحْكَمِ: الْجَمْعُ لُغات ولُغونَ » [9].

وأما من حيث المفهوم الاصطلاحي فنجد ابن جني (ت392هـ) يقول في باب القول على اللغة وما هي قائلاً: « أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، فهذا حدّها. وأمّا اختلافها، فلما سنذكر في باب القول عليها: أمواضعة هي أم إلهام..؟»[10]؛ وذلك أن اللغة في مفهوم ابن جني ظاهرة اجتماعية صوتية، ووظيفية، فهو « يؤكد أن اللغة أصوات، وهو بهذا يستبعد الخطأ الشائع الذي يتوهم أن اللغة في جوهرها ظاهرة مكتوبة» [11]، كما أنه « ينصب على اللغة المنطوقة ذات الجرس المسموع المسمى بالكلام»[12]، فهذا ما يتعلق بحدها.

وأما الخلاف في نشأتها الذي طال الحديث حوله كثيرا، فأننا نجد تمام حسان يوضح في هذا الجانب قائلاً: « فالمواضعة أو التعارف والإلهام أو التوفيق كانا عند العرب أساسين تتراوح الأفكار بينهما في الكلام عن أصل اللغة، ولقد كانت العلاقة بين الكلمة وبين مدلولها (وهي دراسة ميتافيزقية كالكلام في أصل اللغة) من نصيب دراسة الفلسفة الإسلامية أكثر مما كانت من نصيب اللغويين » [13]؛ حيث إنّ الحديث والنقاش في نشأة اللغة طال كثيراً في أوساط الفلاسفة، وهو ممّا أدّى بالدّراسين من إخراج قضية البحث في نشأة اللغة من دائرة البحث في اللغوي أو الدراسات اللغوية إلى مجال علم الكلام؛ لأنه مهما طال النقاش أو قصر في هذه القضية فسيبقى الخلاف دائما في عدم إمكانية الفصل النهائي التام في تحديد نشأة اللغة؛ من حيث التوقيف أو الإلهام، المواضعة والاصطلاح، فهذا عن مفهوم اللغة عند القدامى.

أما مفهومها عند المحدثين فنجد البعض منهم يعتبرها «قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما» [14]، ويمكن أن نستشف من هذا التعريف الحقائق الآتية[15]:

-إن اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع المعارف اللغوية، بما فيها المعاني والمفردات والأصوات، والقواعد التي تنظمها جميعا، تتولد وتنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة، أو مستعملها فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاما أو كتابة.

-إن هذه القدرة تكتسب ولا يولد الإنسان إلاّ بها، وإنما يولد ولديه الاستعداد الفطري لاكتسابها.

-إن اللغة ليست غاية في ذاتها، وإنما هي أداة يتوصل بها أفراد مجتمع معين لتستقيم علاقاتهم، وتسير أمور حاجاتهم، ولهذا كانت معرفة اللغة أو تعلمها ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية.

-إن هذه القدرة المكتسبة في طبيعتها تتمثل في نسق متفق، أو متعارف عليه بين أفراد ما يطلق عليه الجماعة اللغوية، أو الجماعة الناطقة لغة ما، وتدخل في تكوين هذا النسق في العادة وحدات، أو أنساق أخرى متفرعة يرتبط بعضها ببعض.

وأن هذه المستويات المتفرعة عن اللغة هي ما تسمى بالمستوى الصوتي والمستوى الصرفي، والمستوى النحوي أو التركيبي، والمستوى الدلالي فالمستوى المعجمي.

وإذا كان هذا ما يسمى بالمستويات المتفرعة عن اللغة، فإن العرب القدامى كانوا على وعي عميق بأهمية البحث اللغوي في مختلف مستوياته، لأجل دراسة لغتهم دراسة عميقة تمكنهم من الوقوف على جماليات الحرف أو البنية أو التركيب أو النص للوصول إلى المقصد الحقيقي للمتكلم، بُغية توضيح وتبسيط المقصد للمستمع الذي يشترك مع المتكلم في العملية التواصلية اللغوية، بل يعتبر المستمع عنصرا أساسيا في العملية التواصلية، ولايمكننا تجاهله أو إقصاؤه، وكل ذلك لأجل ضمان وصول الرسالة اللغوية لفظاً ومعنىً.

وإنْ كُنَّا فيما سبق عرفنا أهمية اللغة عند بعض الدراسين، ولأجل التأكيد على أهميتها وأهمية العمل بها في استنباط الأحكام أو الوقوف على المقاصد الدقيقة للخطابات أو النصوص، فأننا نجد الشيخ المغيلي يقول عن أهميتها في رسالته "الإجابة عن سؤال حول قبائل يُلَقَّبُون بِالغَلائِف": « فلا بُدّ للناظِر في كُلِّ كلام ليفهم منه حكماً من الأحكام، أن يكون عارفاً بعلم اللغة...، لأن باللغة يتوصل إلى معرفة معاني الكلمات... فمن لا معرفة له باللغة،...لا يوثق بفهمه أصلاً» [16]؛ وهي حقيقة نستشفها من كلام الشيخ المغيلي في أهمية الأخذ والعمل باللغة في الوصول إلى مقاصد الخطابات والأحكام؛ ولذلك ظَلَّ الفيلسوف، وظَلّ الفقيه، وظلّ المفسّر وظلّ الأصولي بحاجة ماسة إلى اللغة، فلا يمكن –أيضا –أن يُمارسِ الإفتاء إلاّ من كان عالماً ومتبحراً في العلوم اللغوية؛ من صوتها وصرفها نحوها ودلالاتها وبلاغتها... ، وهو ما جعل مِن قبل ابن تيمية (ت 728هـ) يشير إلى أهميتها وضرورة العمل بها في الأحكام وفهم مضامين النص القرآني والسُّني في قوله: « إنَّ نفس اللغة العربية من الدّين، ومعرفتُها فرضٌ

واجبٌ، فإنَّ فهم الكتاب والسُّنَّة فرض، ولا يُفهم إلاَّ بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب» [17].

ولأجل الوصول إلى مضامين اللغة ومستوياتها عند الإمام المغيلي، فأننا سنحاول الحديث في هذا الجانب عن الدراسات الصوتية من خلال آثاره العلمية، عسى أننا سنبيّن –بإيجاز– إسهامات العرب في هذا المستوى، ثم الدخول إلى عالم الشيخ المغيلي بُغية استنطاق نصوصه وتعابيره في كل ماله صلة بالمستويات اللغوية.

ثانياً: الدرس الصوتي:

1– مفهوم الصوت:

يقول ابن فارس (ت395هـ) في مفهوم الصوت من حيث اللغة: « الصَّادُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ الصَّوْتُ، وَهُوَ جِنْسٌ لِكُلِّ مَا وَقَرَ فِي أُذُنِ السَّامِعِ. يُقَالُ: هَذَا صَوْتُ زَيْدٍ. وَرَجُلٌ صَيِّتٌ؛ إِذَا كَانَ شَدِيدَ الصَّوْتِ، وَصَائِتٌ إِذَا صَاحَ» [18].

وعند ابن منظور نجد الطرح نفسه لهذا المفهوم، ومن ذلك أن: « الصوت: الجرس... ويقال صَوَّتَ يُصَوِّتُ تصْويتاً فهو مُصَوِّتٌ... ويقال صاتَ يَصُوتُ صَوتاً فهو صائت معناه صائح ابن السكيت الصوتُ صوتُ الإنسان وغيره. والصائتُ الصائح »[19].

وأما من حيث مفهومه الاصطلاحي فأننا نجد له تعاريف عديدة، منها قول الراغب الأصفهاني (ت395هـ) الذي حاول أن يبيّن لنا طبيعة الهواء المنبعث من الرئتين، مع تبيانه لدلالة حدوث الصوت الناتج عن النطق من الفم سواء أكان مفيدا أم غير مفيد بقوله: « الصوت: هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين، وذلك ضربان: صَوْتٌ مُجَرَّدٌ عن تنفُّس بشيء؛ كالصَّوْتِ الممتَّدِ، وتنفّس بِصَوْتٍ ما. والمتنفّس ضربان: غير اختياريّ: كما يكون من الجمادات ومن الحيوانات، واختياريّ: كما يكون من الإنسان، وذلك ضربان: ضرب باليد كصَوْتِ العود وما يجري مجراه، وضرب بالفم؛ والذي بالفم ضربان: نطق وغير نطق، وغير النّطق كصَوْتِ النّاي، والنّطق منه إمّا مفرد من الكلام، وإمّا مركّب الكلام »[20].

ومنه قول ابن سينا (ت428هـ): « إنّ السبب القريب للصوت تموّج الهواء دفعةً بسرعةٍ وقوةٍ من أي سبب كان» [21]، وقول إبراهيم أنيس إنّ: « الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها»[22].

كما أنه يحدث نتيجة احتكاك جسم بآخر لينتج عن ذلك الاحتكاك اهتزازات صوتية تنتقل في الأوساط المحيطة بهذا المصدر حتى تصل إلى آذان السامعين[23].

أو هو الأثر السمعي الناتج عن ذبذبة مستمرة ومطردة لجسم من الأجسام قد يسمع ذلك من احتكاك جسم بجسم آخر أو اصطدامه به، أو يسمع من الآلات الموسيقية الوترية والنفخية، أو من جهاز النطق عند الإنسان[24].

وبالتالي فإن علم الصوت هو دراسة أصوات اللغة، باعتبار أن هذا العلم ينظر إلى دراسة الأصوات في حد ذاتها، ويدرس صفاتها من حيث إخراجها، بل وحتى سماعها، ولكن بعض اللغويين يطلقونه ويريدون به العلم الذي يهتم بدراسة التغيّرات والتحوّلات التي تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها[25].

لقد أشرنا في بداية هذا الفصل أن الدراسات اللغوية عند العرب كان منطلقها وباعثها الأساسي القرآن الكريم، ومنه فأن الجانب الصوتي الذي يعد أولى المستويات اللغوية هو الآخر منطلقه الأساس القرآن الكريم، وأن الاهتمام به عند العرب لم يكن مقتصرا عند أهل اللغة فحسب، وإنما اهتم به النحاة والقرّاء والمفسّرون والفلاسفة وعلماء الأصول، وأن أفضل ما نقدمه لنُبيّن حقيقة اهتمامهم بالظاهرة الصوتية « هو أن الأساس الأوّلي المعوّل عليه في وضع المعايير التأسيسية للنحو العربي، كان الصوت من حيث هو ظاهرة فيزيولوجية قابلة للملاحظة المباشرة»[26]؛ حيث إنّ أوضح صورة يمكننا تقديمها -أيضا- ما قام به أبو الأسود الدؤلي حينما اتّخذ كاتباً حاذقاً « من عبد القيس فلم يرضه فأتى بآخر قال أبو العباس أحسبه منهم. فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غُنَّة فاجعل مكان النقطة نقطتين» [27]، وهو ما جعل العديد من الدارسين أن يقفوا عند هذا النص وقفة مطوّلة ليستخلصوا لنا عدة نتائج منها[28]:

-إنّ المنهج المعوّل عليه ههنا منهج علمي موضوعي، قائم على الملاحظة الدقيقة كما هي في الواقع.

- إنه يهدف إلى وضع ضوابط للأداء الفعلي انطلاقاً من القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، وهي القراءة التي تخضع للكفاية اللغوية للسان العربي.

- إن النظام القواعدي في مرحلته الجنينية نشأ في رحاب معاينة الظاهرة الصوتية.

- مصطلحات المميزات الوظيفية (حركات الإعراب) في اللسان العربي أساسها الجانب الفيزيولوجي من الظاهرة الصوتية.

- إن محاولة أبي الأسود الدؤلي كانت محاولة واقعية، مما يدل على أن الفكر اللغوي العربي تنبه منذ فترة مبكرة جدا إلى أهمية الصوت في اللغة الإنسانية.

كما يعد هذا النص انطلاقة حقيقية لجهود صوتية لدى علمائنا العرب القدامى، والتي منها جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) الذي عنى بالصوت أيّما عناية من خلال معجمه "العين"

الذي أقامه على أساس صوتي ارتآه، هو اعتبار مخارج الحروف في ترتيب الأبواب مبتدأ بحروف الحلق، ومنتهياً بالحروف الشفوية، وهو ما جعل أحد الدارسين يقول عنه: « أما علماء اللغة العرب فقد بدأت محاولاتهم بعمل الخليل بن أحمد، فلم أجد نحويا من النحاة الأولين أحس بضرورة الدراسة الصوتية لفهم أسرار العربية غير الخليل بن أحمد » [29]، فهو « وجّه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه، واستخرج لنا بحور الشعر وقوافيه، أو علم العروض، الذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية لموسيقى الشعر» [30]، وأن بحثه في الصوت لم يكن من حيث صفاته خارجه فقط، وإنما استطاع أن ينتفع بها ويفيد منها فوائد علمية، وأن يُبنى عليها كثيراً أصول النحو، فبعد أن قسّم الحروف طوائف كل طائفة تنتمي إلى مخرج من المخارج، أخذ يعرض لصفاتها ولحالاتها المختلفة، حين تتمازج، ونبّه على ما يتألّف مع غيره وما لا يتألّف[31]، ومثل ذلك لما يقول: « إن العَيْن لا تَأْتَلِف مع الحاء في كلمة واحدة لقُرْب مَخْرَجَيْهما إلا أنّ يُشْتَقَّ فِعلٌ من جمعٍ بين كلمتين مثل "حَيَّ على" » [32]، ويقول أيضاً: « الهاء والحاء لا تأتلفان في كلمةٍ واحدةٍ أصليّة الحروف، لقُرب مَخْرَجَيْهما في الحَلْق » [33].

ثم يأتي بعده تلميذه سيبويه (ت180هـ) في محاولات صوتية من خلال كتابه "الكتاب" الذي برع هو الآخر في مجال البحث الصوتي، وذلك لما تناول الأصوات اللغوية تناولاً شاملاً من حيث المخارج والصفات، وذلك في مثل قوله عن الإطباق مثلاً: « فأما المطبقة فالصاد، والضاد، والطاء، والظاء...وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصورٌ فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف»[34].

ثمّ ازدهرت الدراسات الصوتية أكثر في القرن الرابع الهجري على يد ابن جني (ت392هـ) من خلال كتابه سر صناعة الإعراب لما تناول فيه الصوت من الناحية العضوية والوظيفية عند وصفه لجهاز النطق لدى الإنسان قائلاً: « شبه بعضهم الحلق والفم بالناي، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة» [35].

ومن ذلك أيضا جهود ابن سينا في كتابه "الشفا" لما عبّر عن حدوث الصوت نتيجة لنوعين؛ نوع ناتج عن القرع، وآخر ناتج عن القلع، حيث يقول: « أما القرع فمثل ما تقرع صخرة أو خشبة فيحدث صوت، وأما القلع فمثل ما قلع أحد شقي مشقوق عن الآخر، كخشبة تنحى عليها بأن تبين

أحد شقيها عن الآخر طولاً» [36]. كما أننا نجده يشترط لحدوث القرع أو القلع صوتا أن يكون كل منهما بقوة معيّنة، ومن ذلك يواصل قائلاً: « فإن قرعت جسما كالصوف بقرع لين جدا لم تحس صوتا، بل يجب أن يكون للجسم الذي تقرعه مقاومة ما، وأن يكون للحركة التي للمقروع به إلى المقروع عنف صادم...وكذلك إذا شققت شيئا يسيراً وكان الشيء لاصلابة له لم يكن للقلع صوت البتة » [37]، فكلامه دليل على أنه بصير بعلم الصوت وخباياه، وعلى معرفة بأثر الذبذبات ووصول ذلك الأثر إلى أذن السامع، لاشتراط المحدثين وصول الأثر السّمعي إليها حتى يسمى صوتاً[38].

ومنه –أيضا– بعض الجهود الصوتية التي نلمسها في تراث الفكر الديني، التي تُنبئ عن وعي عميق بعنايتهم للصوت، ومن ذلك قول ابن قيم الجوزية (ت751هـ) في وصفه الدقيق لحدوث الصوت الناتج عن القرع أو القلع كالطرح الذي ساقه من قبل ابن سينا، حيث يقول: « إنّ أثر الصوت يحدث عند اصطكاك[39] الأجرام، وليس نفس الاصطكاك كما قال بذلك من قاله، ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم، أو قلعه عنه، فسببه قرع أو قلع، فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم...فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة، ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديداً نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت» [40]. فمن خلال هذا النص يتبين أن ابن القيم « أضاف إليهما سبباً ثالثاً لم يوضحه ابن سينا، وهو ما يسمى بالاحتكاك أو ما سماه ابن القيم نفسه بالاصطكاك الذي يعد حاصل السببين » [41].

هذا غيظ من فيض عن الجهود الصوتية عند العلماء القدامى والتي كانت محط استشهاد وإعجاب من لدن الغربيين أنفسهم، وذلك في مثل إعجاب بروكلمان بتلك الجهود، وردّه على من زعم أن العرب تأثروا بالحضارات القديمة في دراساتهم الصوتية والنحوية، واعتبر أن وجود علم الأصوات عند العرب ظاهرة قائمة بذاتها[42].

فهذه الجهود اعتبرناها لبنة أساسية للإسهامات الصوتية عند العرب، أردناها أن تكون محطة تمهيدية للوقوف عند الإسهامات الصوتية لأحد الأعلام الجزائريين؛ ألا وهو الشيخ المغيلي، ففيما تتمثل جهوده الصوتية يا ترى؟.

ومن قضايا الصوت لديه نجد:

2–المناسبة بين اللفظ والمعنى:

ناقش العلماء القدامى قضية المناسبة بين الألفاظ ومدلولاتها نقاشاً مطوّلاً من حيث إبراز الصلة بين «الصوت ومدلوله؛ أي هي ناتجة عن الصلة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها؟ فيكتسب اللفظ

دلالته من خلال الجرس الصوتي الذي ينتج عنه ما يسمى بالمناسبة الطبيعية بين الأصوات ومدلولاتها. أم أن تلك الصلة ناتجة عن العلاقة التواضعية الاصطلاحية بين البشر أنفسهم؟» [43].

وإنْ كُنا لا نريد الإطالة في هذه القضية للإشارة بجهود العلماء القدامى في هذا الجانب، فأننا نمثل – على الأقل- برأي ابن جني الذي يُعد من القائلين بوجود الصلة بين الصوت ومدلوله قائلاً:« فإن كثيراً من هذه اللغة وجدْتُه مُضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها »[44].

ونجد في هذا الجانب أن العلماء القدامى لم يغفلوا -أيضا- البحث في المناسبة الحاصلة في النص القرآني بين فواتح السوّر وخواتمها، أو المناسبة في فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها، ومن ذلك لمّا يرى الزركشي (ت 794هـ) أن المولى عزّوَجَلَّ : « لما ختم سورة النساء آمراً بالتوحيد والعدل بين العباد، أكّد ذلك في أول سورة المائدة:"**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**"[45] »[46]؛ فحدوث المناسبة أمر مُعتّد به في القرآن الكريم، وذلك كما يرى الزركشي -أيضا- في :« وَإِذَا اعْتَبَرْتَ افْتِتَاحَ كُلِّ سُورِهِ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا خَتَمَ بِهِ السُّورَةَ قَبْلَهَا، ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً وَيَظْهَرُ أُخْرَى كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فأنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه: "**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**"[47]، وكافتتاح سورة فاطر: "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[48] أيضا؛ فأنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: "**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ**"[49]...وكافتتاح البقرة بقوله: "**الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**"[50] إشارة إلى "**اهْدِنَا**" في قوله: "**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**"[51]؛كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة»[52].

ومن هذا المنطلق، نجد أن الشيخ المغيلي هو الآخر من العلماء الذين أولوا عناية كبرى لقضية المناسبة الحاصلة بين اللفظ والمعنى، أو بين الصوت ومدلوله، وهذا ما لمسناه في عدة مواطن من مؤلفاته المتعددة المعارف والعلوم؛ ومن ذلك لما حاول تأكيده على سلامة المعنى، الذي هو ناتج عن سلامة اللفظ الخالي من التنافر والثقل في حروفه، لأجل أن تتحقق المناسبة الحقيقة بين اللفظ ومعناه، حيث نجده يقول عن محاسن الكلام الذي لابد له من « عذوبة اللفظ وحسن السّبك ووضوح المعنى؛ فعذوبة اللفظ بخلوصه من التنافر والثقل... وحسنُ السّبك بخُلُوصه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبِس »[53]؛ أي تركيب اللفظ من الحروف أو الأصوات السهلة المتباينة الواضحة، وأنه كلما ركّبنا الألفاظ بحروف أو

أصوات متنافرة وثقيلة وغير مرتّبة الترتيب الحقيقي الذي يضمن السلامة النحوية ومقصد الكلام، جاء المعنى مبهماً وغير تام؛ «لأن ما يقرع السّامع فإن كان عذباً حسن السّبك، صحيح المعنى أقبل السّامع على الكلام فوعى جميعَهُ وإلاّ عرض عنه ورفضه»[54]، وهذا ما يندرج ضمن الإطار العام الذي يُنعت بعناية الشيخ المغيلي للمناسبة الحاصلة بين اللفظ والمعنى الذي يقول فيها موّضحاً: « مناسبة المعاني لألفاظها بحيثُ يكتسي اللفظُ الشريفُ المعنَى السّخيف، ووضوح المعنى بسلامته من التناقض والامتناع...مما يجب استعمال اللفظة الدقيقة في ذكر الأشواق...مما فُتِح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة »[55]. وهو ضابط ضروري لا بدّ من مراعاته عند إنتاجنا لألفاظ أو جمل بُغية التعبير عن مقاصدنا وأفكارنا.

ومن البحث في المناسبة –أيضا– الحاصة في سور القرآن الكريم؛ من خلال جهد الشيخ المغيلي في تفسيره لسورة الفاتحة الذي حاول أن يبحث المناسبة في سرّ ارتباط سورة البقرة بالفاتحة، وأنه تقريبا ذهب إلى ماذهب إليه الزركشي، حيث يقول الشيخ المغيلي: "**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**" هنا: القرآن. قلت: ويُبَيِّنُهُ أوَّل البقرة كأنهم لما قالوا: "**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**"[56] أجيبُوا بقوله تعالى: "**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**"[57]؛ أي الصراط المستقيم "**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**"[58] إلى آخر القرآن »[59]؛ فهذا سرّ المناسبة بيّنه الشيخ المغيلي بلطافة حسّه وذوقه المتّقد من أن افتتاح سورة البقرة هو إشارة إلى الصراط في سورة الفاتحة، وأن المتمعّن لهذا التحليل للشيخ المغيلي سيجد أنه لا يقف عند إبرازه للمناسبة بين سورة الفاتحة والسورة التي تليها؛ والقصد بها سورة البقرة، وإنّما تعدى ذلك ليشمل المناسبة بين سورة الفاتحة وباقي القرآن الكريم، حيث يقول الشيخ المغيلي موضّحاً: « فسورة الحمد أصلٌ مُجملٌ وباقي القرآن لَهُ مُفسِّرٌ »[60]؛ فلذلك نجد من أسمائها "أم القرآن"، وهي إضافة علمية دقيقة تُحسب لشيخنا المغيلي في إشارته إلى أن كل المعاني التي جاء بها القرآن الكريم تضمنتها سورة الفاتحة، ومن ذلك قوله في موضع آخر كقاعدة عامة بخصوص المناسبة الحاصة بين فواتح السور وخواتمها: «وجميع فواتح السُّور وخواتمها على أحسنِ الوجوه وأكملها»[61].

ومن ذلك لما نجد القرطبي (ت671هـ) يُصرح هو الآخر بقوله: « وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل: إنّ جميع القرآن فيها، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن، ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصحُ القُربة إلاّ بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم... والفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يُستبعد ذلك في قدرة الله تعالى »[62].

فهذا عن جماليات القرآن الكريم، ووجه من وجوه تفسيره، وأنه مهما أكّدها الشيخ المغيلي بنفسه واعتبرها قاعدة، فينبغي أن يضع في حُسبانه كل من يحاول الاجتهاد في عالم تفسير النص القرآني أن يعلم بأن كلمات المولى عزَّوَجَلَّ لا تحصى ولا تعد كما وضّح العلي القدير في قوله: "**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**"[63]، حيث يقول الشيخ المغيلي: « فلا تتوهم أيّها السّامعُ لتفسير شيء من كتاب الله، أن ذلكَ مَبلَغَ حِكَمه، إنّما القرآن بحرٌ لا ساحل له، كُلٌّ يغترف منه بكأس فهمه، على حسب علمه، ولذلك قال النبي ﷺ: [**لاَ يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الفِقْهِ حَتَّى يَرَى للقُرْآنِ وُجُوهاً كَثِيرَةً**] [64] »[65]؛ وهذا على الرغم من أن باب الاجتهاد مفتوح لدى العلماء في التفسير إلى أن تقوم الساعة، وأن المفسرين مهما بلغوا من دراية وعلم، فأنه لا يمكنهم الإحاطة بالدلالات والمقاصد الكاملة لهذا النص القرآني المعجز بلفظه وتراكيبه وبلاغته؛ فدرجة التفسير بطبيعة الحال تختلف بحسب تفاوت درجة الأفهام والأذهان بين العلماء في حد ذاتهم.

3–بين السمع والصوت:

ناقش الشيخ المغيلي قضايا لها صلة بالصوت عند الإنسان في "المراجعات" التي تمت بينه وبين الإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ) ومنها السمع، وذلك لما حاول أن يبيّن صفات الخالق عزَّوَجَلَّ التي تختلف عن صفات الإنسان بطبيعة الحال، ومن خلال المراسلات التي تمت بينهما، حاول الشيخ المغيلي أن يوضّح بعض الصفات مثل "الصمم" و"البكم"؛ فإذا كان الصمم هو تعسُّر سماع الأصوات والحروف على السمع، أو غيبة الأصوات أو بعضها على السمع، وأن البكم هو تعسر النطق بالحروف المركّبة لإفادة المعاني[66]، فإن هذا الأمر يطلق على الإنسان فحسب؛ باعتبار مايراه الشيخ المغيلي وفي رده على من يزعم ذلك في حق المولى عزَّوَجَلَّ نجده يقول: « إنّ البُكم المستحيل في حقه تبارك وتعالى، خروج معلوم ما من المعلومات عن دلالة كلامه جلّ وعلاً، ولا يكون كلامه حرفاً أو صوتاً أو يتجدّد، أو يطرأ عليه سكوتٌ؛ لأن هذه المستحيلات يجب تفسيرُها بضد تفسير الكَمالات التي هي أضدادها، وهي الواجبة للمولى تبارك وتعالى، وهو السمع والبصر المتعلقان بجميع الموجودات، والكلام الذي ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، ويتعلق بجميع ما يتعلق به العلم؛ لأن بضدها تتبيَّن الأشياء» [67].

كما أن الشيخ المغيلي لا يقف عند هذا الحد، بل راح يوضّح لنا معنى البُكم الذي أرجعه إلى ما يسمى عند أهل الاختصاص بـ"الحُبسة"[68]، وهو المفهوم نفسه الموجود في الدرس الحديث؛ لأن المتّصف بالبكم هو الذي لا يستطيع أن يركّب الحروف عند النطق لأجل التعبير عن أغراضه لإفادة معنى ما، بينما لا يمكن ألبتّة إطلاق هذه الصفة على الخالق عزَّوَجَلَّ على من يتزعم ذلك، وهو ما ردّ به الشيخ المغيلي قائلاً: « وَكَذَا مَنْ أحال البكمَ في حقه تعالى بمعنى تعذُّر النطق بالحروف المركّبة لإفادة

المعاني، فقد وصف مولانا جلَّ وعلاً بعين البُكم؛ لاستحالة كون كلامه جلاًّ وعلاً صوتاً وحرفاً؛ إذ أصل البكم الحُبسة في الكلام عن الدّلالة على معلوماته إلاّ بعد أزمنة، ومعلوم أن معلوماته تعالى لا نهاية لها، فلو كان جلّ كلامه بالحروف والصوت، لاَحْتَبَس عن الدّلالة عليها دُفْعة واحدةٍ» [69]؛ فلا يمكن إطلاق هذه الصفة على الخالق سبحانه وتعالى إلاّ من قَصُر فهمه وعمت بصيرته، فهو كما يرى الشيخ المغيلي « ناقص البصر جداً، في اللّغة والعُرف» [70] معاً.

وأما حديثه عن تعلق السمع بالبصر، فأن ما له صلة بالحروف هو داخل في الأصوات؛ باعتبار أن الأصوات المختلفة يمكن أن تكون نتيجة الحروف المتباينة أثناء تركيبها وتأليفها، وكل ذلك يندرج ضمن الصوت أو الصّوتية كما عبّر عنها الشيخ المغيلي في ردّه على من يزعم خلاف ذلك بقوله: « إنّا نقول أيضا: إجراؤكم ذلك السَّبْر في السمع مبنيٌّ على أنه لامشترك بين الأصوات المختلفة والحروف المتباينة، إلاّ الوجود كما في البصر، وهو غير صحيح؛ لأنها اشتركت كُلُّها في الصَّوتية مثلاً» [71]، ويضيف قائلاً: « بل السمع لا يتعلق إلاّ بالصوت، فجاز أن يكون علّة صحة المسموعية هي الصوتية فقط »[72]؛ فالأذن تستقبل تلك الحروف على الرغم من تباينها إلاّ أنها في آخر المطاف تعبّر عن صوت مختلف لذلك الناطق الذي هو الإنسان الذي يحاول إيصال رسالة ما للتعبير عن ما في ضميره.

4-جهوده في القراءات:

كما أننا نلحظ للشيخ المغيلي جهودا معتبرة في علم القراءات الذي له صلة وثيقة بالجانب الصوتي، وهي محاولة منه في تفسيره لسورة الفاتحة لأجل تبيان الفرق بين قراءة (مَلِك) دون صوت الألف، و(مَالِك) بإضافة صوت الألف، حيث يقول: « وعلى قراءة "ملِك" بعض السبعة كنافع، و"مَالِك" على قراءة بعضهم كعاصم من ملك بمعنى: شدّ وضبط» [73]؛ مع أن الشيخ المغيلي لا يكتفي بسرد القضية، بل حاول أن يوجهها التوجيه الذي تحتمله لغتنا العربية، حيث يضيف قائلاً: « فالقراءتان حسنتان؛ لأن الله تعالى مَلِكُ يوم الدين، ومَالِكُهُ حقيقةً» [74]؛ فلا خلاف في وجه القراءتين حسب رأي الشيخ المغيلي، ولكنّا نجد هناك فرقاً حسب رأي القرطبي[75] -مثلا- من حيث المعنى، وهو أن المعنى المتضمن في "ملك" قد لا يوجد في القراءة بلفظة "مالك".

5-ظاهرة الإدغام:

الإدغام لغة هو الإدخال: « يقال: **أَدْغَمْتُ الْفَرَسَ اللِّجَامَ؛ أَيْ أَدْخَلْتُهُ فِي فِيهِ، وَمِنْهُ إِدْغَامُ الْحُرُوفِ، يُقَالُ: أَدْغَمَ الْحَرْفَ وَ ادَّغَمَهُ)** »[76].

وأما في الاصطلاح يقول ابن جني في باب الإدغام الأصغر: « قد ثبت أن الادّغام المألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت. وهو في الكلام على ضربين: أحدهما أن يلتقي المِثْلان على

الأحكام التي يكون عنها الادّغام، فيدَّغم الأول في الآخر. والأوّل من الحرفين في ذلك على ضربين: ساكن ومتحرك؛ فالمدّغم الساكن الأصل كطاء قطَّع، وكاف سُكّر الأُوليين، والمتحرك نحو دال شدَّ، ولام معتلّ. والآخر أن يلتقى المتقاربان على الأحكام التي يسوغ معها الادّغام، فتقلب أحدهما إلى لفظ صاحبه فتَدّغمه فيه. وذلك مثل: "ودَّ" في اللغة التميمية، وامَّحى، وامَّاز، واصَّبر، واثَّاقل عنه. والمعنى الجامع لهذا كله تقريب الصوت من الصوت »[77].

ومن خلال الحديث عن ظاهرة الإدغام الأصغر نجد أن الشيخ المغيلي هو الآخر تطرق إلى هذه الظاهرة الصوتية في كتابه "شرح التبيان"، وهي المعالجة الوحيدة له لهذه الظاهرة على حسب ما اطّلعنا عليه في مؤلفاته، كما حاول أن يُبيّن الإدغام الواضح في لفظ "الأجلّ" حيث يقول: « والمخالفة كون لفظ الكلمة على خلاف وَفْق ما ثبت عن الواضع نحو: "الأجلَلِ" بفك الإدغام من قوله:

الحَمْدُ للهِ العَلِيّ الأَجْلَلِ الوَاحِدِ الفَرْدِ القَدِيمِ الأَوَّلِ؛

فإن القياس: " الأَجَلّ " »[78]؛ فهذا إدغام صغير وقع بين حرفين مشتركين في الصفة والمخرج لحرفي اللام في"الأجلل"، التي أُدغمت فصارت على صورة "الأجلّ"، وذلك أن الهدف من الإدغام كما يرى أغلب الدّارسين « هو تقريب الأصوات من بعضها ليسهل أداؤها لا سيما في غمرة عمليات النطق المتتابعة...وكلّما تقاربت الأصوات من حيث مخارجها أو تماثلت كان إدغامها أفضل لتحقيق أساس التيسير في سلامة إنتاج الوحدات الصوتية »[79].

6–التنافر في الحروف ودور الاستعمال:

تحدث الشيخ المغيلي حديثاً مطوّلاً في هذا الجانب لأجل تبيان أن سلامة اللفظة وفصاحة الكلام راجعان أساساً إلى عدم ترتيب الحروف الترتيب السليم في الكلمة الواحدة، مما ينتج عنه –بطبيعة الحال– ثقل في النطق على اللسان، وعدم فهمه لدى المتكلم في آخر الأمر، وأرجع ذلك كلّه إلى دور السامع؛ باعتباره طرفاً أساسياً في العملية التواصلية، وكُلّ ما عدّه السامع غير مقبول أو غير مستساغ لديه فهو يدخل فيما يسمى "التنافر" الذي أرجعه الشيخ المغيلي أولاً وقبل كل شيء إلى عامل الاستعمال، لا إلى مخرج أو صفات الحروف، حيث يوضّح قائلاً: « التنافر وصفه في الكلمة يُوجبُ ثِقلَها على اللسان، كقول أعرابي سُئِلَ عن ناقته فقال: "تركْتُهَا تَرعى الهُعْخُعَ[80]" –بخاء معجمة– ، وكلفظ " مُسْتشْزرَات"[81]؛ أي مرتفعات، وهذا مرجعه إلى الذوق السليم، فكُلُّ ما عدَّهُ الذوق السليم ثقيلاً متعسِّر النطق فهو متنافر، ولا عِبرة بقُرب المخارج ولا بُعدها ولا غير ذلك من صفات الحروف »[82]؛ فهذا ما يُنبئ على أن الاستعمال له دور كبير في الآداء التواصلي، فكم من لفظة أُغفل معناها

الحقيقي، وبقي معناها المجازي مستعملاً والعكس صحيح، والسبب في ذلك راجع إلى استعمال أو إطلاق اللفظ على المعنى المتعارف عليه في أوساط مستعملي اللغة في البيئة واحدة.

فهذا ما يمثل جهود الشيخ المغيلي الصوتية المتوصّل إليها من خلال بحثنا في مصادره المختلفة المعارف والعلوم، ففيما تتمثل جهوده في الدرس الصرفي يا ترى؟

الهوامش

[1] – فقه اللغة في الكتب العربية، د.عبده الراجحي، ص34-35، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م.

[2] – ينظر مقدمة في علوم اللغة، د.البدراوي زهران، ص25-27، دار العلم العربي، مصر، ط2، 2012م.

[3] – المحكم في نقط المصاحف، أبو عمرو الداني، ص18-19، تحقيق د.عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط2، 1407هـ.

[4] – ينظر البحث اللغوي عند العرب، د.أحمد مختار عمر، ص79، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 2003م.

[5] – تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ص194، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 1425هـ-2004م.

[6] – مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ص03، ديوان المطبوعات الجامعية، ط6، 1999م.

[7] – ينظر المرجع والصفحة نفسهما.

[8] – التفكير اللساني في الحضارة العربية، د.عبد السلام المسدي، ص26، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2، 1986م.

[9] – لسان العرب، ابن منظور، مادة (لغا)، 15/150-253، دار صادر بيروت، ط3، 1414هـ.

[10] – الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، 1/33، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، دت.

[11] – مدخل إلى علم اللغة. د.محمود فهمي حجازي، ص14، الدار المصرية السعودية، للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4. 2006م.

[12] – فصول في علم اللغة العام، د.محمد علي عبد الكريم الرديني، ص15، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1. 1423هـ-2002م.

[13] – مناهج البحث في اللغة، د.تمام حسان، ص25، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 1407هـ-1986م.

[14] – اللغة والحياة والطبيعة البشرية، روى هجمان، ص15-16، ترجمة د.داود حلمي أحمد السيد، الكويت، جامعة الكويت، 1409هـ-1989م.

[15] – ينظر فصول في علم اللغة العام، ص18-19.

16 - الإجابة عن سؤال حول قبائل في آخر الصحراء لا تنالهم أحكامُ الأمراء يتخذهم اليهودُ أخلاء ويلقبونهم بالغلائف، محمد بن عبد الكريم المغيلي، تحقيق أ.عبد الرحمان حمّادو الكتبي، ص57، المنشور ضمن العلامة المغيلي وسياسته مع اليهود–الوثائق الكاملة، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، 2013م.

17 - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين بن تيمية، 527/1، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط7، 1419هـ - 1999م.

18 - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس زكرياء، مادة (صوت)، 318/3-319، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ-1979م.

19 - لسان العرب، مادة (صوت)، 57/2.

20 - المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة (صوت)، ص496، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ.

21 - أسباب حدوث الحروف، الشيخ الرئيس ابن سينا، ص103، تحقيق محمد حسان الطيان ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ت.

22 - الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، ص06، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4، 1971.

23 - ينظر المرجع والصفحة نفسهما، وفصول في علم اللغة العام، ص152-153.

24 - ينظر مباحث في اللسانيات، ص69.

25 - ينظر أسس علم اللغة، ماريو باي، ص46، ترجمة د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8، 1419هـ-1998م.

26 - مباحث في اللسانيات، ص61-62.

27 - أخبار النحويين البصريين، الحسن أبو سعيد السيرافي، ص13، حققه طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي، الناشر مصطفى البابي الحلبي، 1373هـ-1966م.

28 - ينظر مباحث في اللسانيات، ص62.

29 - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، د.مهدي المخزومي، ص168، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1377هـ- 1958م.

30 - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د.رمضان عبد التواب، ص14، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1403هـ-1983م.

31 - ينظر مدرسة الكوفة، ص168.

32 - العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، 60/1،تحقيق د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي،دار ومكتب الهلال، دط، دت.

[33] - المصدر نفسه، 05/3.

[34] - الكتاب، عثمان بن قنبر سيبويه، 436/4، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط3، 1408هـ-1988م.

[35] - سر صناعة الإعراب، عثمان أبو الفتح بن جني، 21/1-22، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1421هـ-2000م.

[36] - الشفا، الشيخ الرئيس ابن سينا، ص82، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لندن، 1959م.

[37] - المصدر نفسه، ص82-83.

[38] - ينظر فصول في علم اللغة العام، ص158.

[39]- ومنه الصوت الناتج عن ضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدْو. ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة (صكك)، 456/10.

[40]- مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية، 213/1-214، تحقيق محمد الإسكندراني وأحمد عناية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ-2005م.

[41]- الدرس الصوتي والصرفي في تراث العلاّمة ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، د. إدريس بن خويا، ص36، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1. 2016م.

[42]- ينظر مباحث في اللسانيات، ص65.

[43]- الدرس الصوتي والصرفي في تراث العلاّمة ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، ص15.

[44] - الخصائص، 65/1.

[45]- سورة المائدة، الآية 01

[46]- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، 186/1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، لبنان، ط1، 1376هـ- 1957م.

[47]- سورة الزمر، الآية 75.

[48]- سورة فاطر، الآية 01.

[49]- سورة سبأ، الآية 54.

[50]- سورة البقرة، الآية 01.

[51]- سورة الفاتحة، الآية 06.

[52]- البرهان في علوم القرآن،38/1.

[53]- شرح التبيان في علم البيان، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص385-386.

[54]- المصدر نفسه، ص385.

55- المصدر نفسه، ص386-389.

56- سورة الفاتحة، الآيتان 06-07.

57- سورة البقرة، الآية 01.

58- السورة نفسها، الآية 02.

59- تفسير سورة الفاتحة، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص232، (د. بوربيق)، وتفسير فاتحة الكتاب، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ص58-59 (د.خدير).

60- تفسير سورة الفاتحة، ص232، تحقيق د.بوربيق، وتفسير فاتحة الكتاب، ص59، تحقيق د.خدير.

61- شرح التبيان في علم البيان، ص392.

62- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله الأنصاري القرطبي، 1/100-111، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، مصر، ط2، 1387هـ-1967م.

63- سورة الكهف، الآية 109.

64- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، 1/138، تحقيق الشيخ محمد علي معوض وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418 هـ، **وينظر فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414هـ**

65- تفسير فاتحة الكتاب، ص18، (د.خدير)، وتفسير الفاتحة، ص219، (د. بوربيق).

66- ينظر المراجعات بين الشيخ المغيلي والإمام السنوسي، المنشور ضمن شخصية الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وتراثه العلمي، ص285-286، تحقيق د.علال بوربيق، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، 2013.

67- المصدر نفسه، ص286.

68- الحُبسة: تشكل مرضاً لغويا يؤدي إلى خلل في أداء الكلام، وهي مجموعة من الاضطرابات المرضية التي تخل بالتواصل اللغوي دون عجز عقلي خطير، ويمكن أن تصيب مقدرتي التعبير والاستقبال للأدلة اللغوية المنطوقة أو المكتوبة معاً، كما يمكن أن تصيب إحدى المقدرتين فقط. ويرجع سبب هذه الاضطرابات إلى إصابات موضعية في النصف الأيسر من الدماغ عند مستعملي اليد اليمنى، وفي غالب الأحيان -أيضا- عند مستعملي اليد اليسرى مع تميزهم ببعض الخصوصيات. ينظر دروس في اللسانيات التطبيقية، د.صالح بلعيد، ص177، دار هومه، الجزائر، ط3، 2000م.

69- المراجعات، ص287.

70- المصدر والصفحة نفسهما.

71- المصدر نفسه، ص307.

72- المراجعات بين المغيلي والسنوسي، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، إعداد أ.عبد الرحمن حمّادو الكتبي، ص530، المنشور ضمن "مع المغيلي ابن عبد الكريم الإمام صاحب نازلة يهود توات-حقائق ووثائق"، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث، الجزائر، 2013.

73- تفسير سورة الفاتحة، ص226. تح.د.بوربيق.

74- المصدر نفسه، ص227.

75- ناقش القرطبي القضية مطوّلاً مستشهداً بآراء متعدّدة للعلماء بقوله: «اختلف العلماء أيّما أبلغ: ملِك أو مالِك؟ والقراءتان مرويتان عن النبي ρ وأبي بكر وعمر، ذكرهما الترمذي؛ فقيل: "ملِك" أعمّ وأبلغ من "مالِك"؛ إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكاً...وقيل "مالك" أبلغ؛ لأنه يكون مالكا للناس وغيرهم؛ فالمالك أبلغ تصرُّفاً وأعظم...وقد احتّج بعضهم على أن مالكاً أبلغ لأن فيه زيادة حرف؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك. قلتُ: هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتت القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس في مالك على مابيّنا والله أعلم». الجامع لأحكام القرآن، 1/140-141.

76- مختار الصحاح، زين الدين بن أبي بكر الرازي، ص105، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت-صيدا، 1420هـ-1999م.

77- الخصائص، 2/139/140.

78- شرح التبيان في علم البيان، ص132-133.

79- الصوتيات التركيبية –الدراسة التركيبية لأصوات اللغة العربية، د.أبو بكر الحسيني، ص81، مطبعة مزوار، الوادي، الجزائر، ط1، 2014م.

80- الهُعْخُعَ: شجر، وقيل لفظ موضوع للمعاياة ولا أصل له في اللغة، أو كما ذكر بعضهم أنها اسم خاص، ينظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، 1/55.

81- الاستشزار: الارتفاع والرفع جميعا، فيكون الفعل منه مرة لازماً ومرة متعدياً، فمن روى "مستشزرات" بكسر الزاي جعله من اللازم، وهو في قول امرئ القيس: غَدَائِرُهَا مُسْتَشزراتٌ إِلَى العُلاَ * تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مثنًّى وَمُرسِلِ. شرح المعلقات السبع، أبو عبد الله الحسين الزوزني، ص22، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، 1387هـ-1967م.

82- شرح التبيان في علم البيان، ص129-130.